البلاغة العامة والبلاغات الخاصة

بلاغة الجمهور نموذجا

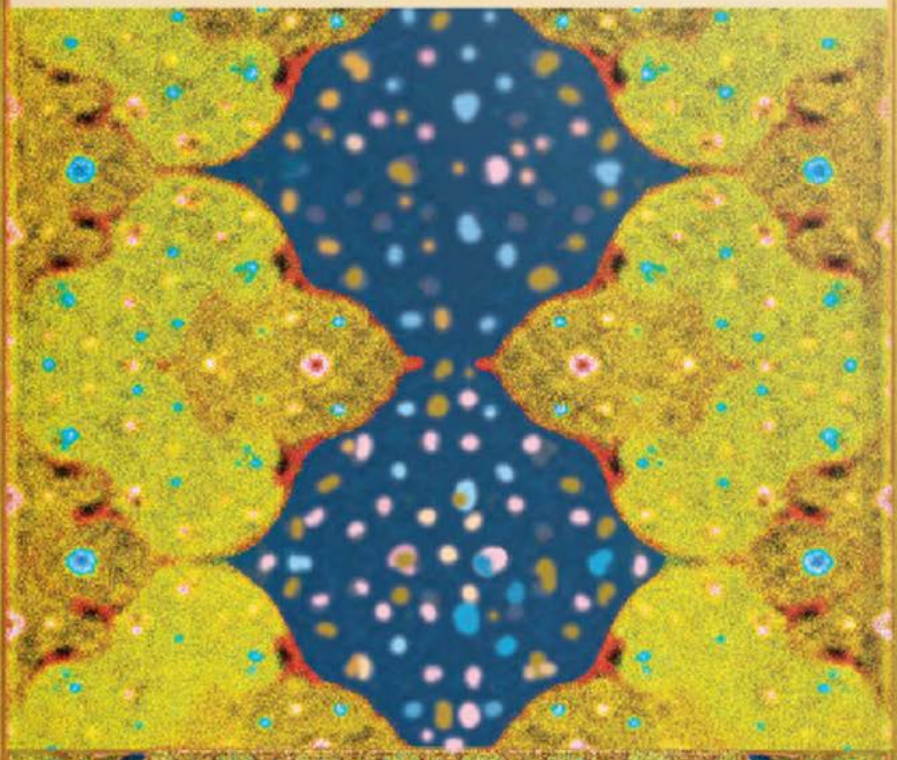

عادل المجداوي

تقديم : عماد عبد اللطيف

دار العين للنشر

البلاغة العامة والبلاغات الخاصة

بلاغة الجمهور نموذجا

البلاغة العامة والبلاغات الخاصة
بلاغة الجمهور نموذجا

عادل المجداوي

الطبعة الأولى / ١٤٤٢هـ، ٢٠٢١م
حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E–mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف:

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: /٢٠٢١
I.S.B.N 978 – 977 – 490 – –

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢١

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠

١-

٢-

٣-

أ-

أ- العنوان

رقم الإيداع / / ٢٠٢١

المحتويات

تقديم: مشاريع البلاغة العربية: رؤية معرفية مقارنة. **د. عماد عبد اللطيف** 7
مقدمة 13
مدخل 19

الفصل الأول
المسار التاريخي للمشروعين البلاغيين 25
تمهيد 27
المبحث الأول: مفهوم الإبدال المعرفي وقراءة المشروعين 28
المطلب الأول: مفهوم الإبدال المعرفي 28
المطلب الثاني: منطقة تقاطع المشروعين 37
المبحث الثاني: الإطار الإبستمولوجي للبلاغة العامة 46
المطلب الأول: الإبدال المعرفي والتأسيس لمشروع البلاغة العامة 47
المطلب الثاني: ما البلاغة في مشروع الأستاذ محمد العمري؟..... 56
المبحث الثالث: التصور الإبستمولوجي لبلاغة الجمهور 64
المطلب الأول: قراءة التراث البلاغي والتأسيس لـ"بلاغة الجمهور" 64
المطلب الثاني: التمهيد لبناء تصور إبستمولوجي لبلاغة الجمهور.. 76
خاتمة 86

الفصل الثاني
البلاغة العربية وإشكالية المصطلح 89
تمهيد 91
المبحث الأول: دراسة المنظومتين المصطلحيتين للمشروعين 93
المطلب الأول: المفاهيم البلاغية وإنتاج المعرفة البلاغية 95
المطلب الثاني: الهمُّ المصطلحي في المشروعين 104
المبحث الثاني: أهم المفاهيم المؤسسة للمشروعين 111
المطلب الأول: مفاهيم البلاغة العامة 111
المطلب الثاني: مفاهيم بلاغة الجمهور 119
خاتمة 136

الفصل الثالث
العلاقة بين البلاغتين.. علاقة العام بالخاص 139
تمهيد 141
المبحث الأول: العلاقة بين المشروعين البلاغيين على مستوى التنظير (البحث في العنصر المنسق) 143
المطلب الأول: بين الجمهور والمستمع 143
المطلب الثاني: الاحتمال والتأثير بين المشروعين..... 162
المبحث الثاني: العلاقة بين المشروعين البلاغيين على المستوى الإجرائي 174
المطلب الأول: البعد التداولي في تحليل الخطابات 174
المطلب الثاني: موقع بلاغة الجمهور في البلاغة العامة/ مستويات التحليل 180
خاتمة البحث 195
المراجع 197

مشاريع البلاغة العربية

رؤية معرفية مقارنة

د. عماد عبد اللطيف

قَدَر المعرفة تطورها. فجديد اليوم، هو قديم الغد. والمعارف لا تموت، بل تشكّل كلّ معرفة قديمة جزءًا من نسيج كلّ معرفة جديدة. وعلاقة القديم بالجديد من المعرفة ليست دومًا علاقة صراع وهدم. إذ تحتمل، كذلك، الإضافة، والتحديث، والاستكمال. ويحتاج الباحثون في أي حقل معرفي إلى دراسات معمّقة ترصد النقاط المفصلية في تحولات العلوم، وتكتب تاريخها، وتكشف عن علاقات الجديد بالقديم. هذه الدراسات تنتمي إلى تاريخ العلم، ولها أهمية حاسمة في طريقة تصورنا للعلم، وطريقة تفكيرنا في مستقبله. مثلما يفعل كتاب "البلاغة العامة والخاصة: بلاغة الجمهور نموذجًا" للأستاذ عادل مجداوي، الذي يُقدم إسهامًا مهمًا في علم البلاغة بواسطة دراسة بعض مشاريع البلاغة العربية من منظور فلسفة العلم وتاريخه.

لقد شهد علم البلاغة في العالم العربي الحديث والمعاصر عددًا من

التحولات الجذرية في ماهيته، ووظائفه، ومسائله، ومناهجه، وعلاقاته بغيره من العلوم، ومدى انتشاره وانحساره...إلخ. اتخذتْ هذه التحولات شكل مشاريع علميّة، قدّم كلّ منها تصوره الخاص للقضايا السابقة، وساهم في إكساب البلاغة العربية هويّة جديدة. عادةً، تُدرس هذه المشاريع التجديدية من زوايا المؤثرات، والمظاهر، والنتائج. فغالبًا ما يتوجه الاهتمام إلى دراسة العوامل المؤثرة في هذه المشاريع؛ سواء أكانت معرفية أم غير معرفية، وإلى دراسة مظاهر التجديد الذي تقدمه على المستويات المختلفة للعلم، وبخاصة ما يتعلق بماهية العلم، ومسائله، ومنهجياته، وعلاقاته المعرفية. علاوة على ذلك، فإن بعض الاهتمام بهذه المشاريع البلاغية يتوجه إلى النتائج والآثار التي أحدثتها في حالة المعرفة في زمن ما. وعلى خلاف ذلك، فإن العلاقات بين هذه المشاريع نادرًا ما تُدرس من منظور فلسفة العلم، وهذا ما يميز الكتاب الذي بين أيدينا الآن.

بحسب ستيف فولر (2019) فإن فلسفة العلم معنيّة بدراسة الكيفية التي يُنتِج بها البشرُ المعرفةَ خلال حيواتهم القصيرة[1]. وتتعاظم أهمية فلسفة العلم حين يحاول العلماء تفسير التحولات الجذرية في حركة العلم. وقد خضعت هذه التحولات لمحاولات تفسيرية متنوعة، لعل أهمها مقترح توماس كون الذي ينظر إلى الطفرات المعرفية بوصفها تحولات فيما أسماه النماذج الإرشادية للعلم Paradigms. وهو المفهوم الذي يؤسس عليه الأستاذ عادل المجداوي مقاربته لمشروعي البلاغة العامة، وبلاغة الجمهور، بوصفهما مشروعين بلاغيين فاعلين في المشهد البلاغي العربي الراهن. وهو

(1) Fuller, S. (2019). Philosophy of Science and its Discontents. New York: Routledge. انظر،

يقدّم بذلك ما يمكن أن نعدَّه أول دراسة عربية معمّقة لمشاريع البلاغة العربية المعاصرة من منظور فلسفة العلم. ومن هذا المنظور يجمع الكتاب بين منظورين مميّزين؛ الأول منظور معرفي يمثل الأساس النظري لها، والثاني منظور مقارن يمثل منهجيتها في المعالجة.

يوظّف الأستاذ المجداوي في كتابه إحدى أهم نظريات فلسفة العلم؛ أعني نظرية النماذج الإرشادية -أو الإبدالات المعرفية بحسب الترجمة المعتمدة عند المؤلّف-؛ لتفسير نشأة وتطور إسهامين بلاغيين هما البلاغة العامة عند الأستاذ محمد العُمري، وبلاغة الجمهور عند عماد عبد اللطيف. وقد أوضح في مفتتح كتابه علّة اختيار هذين الإسهامين تحديدًا في أنه يتحقق فيهما مفهوم المشروع البلاغي المكتمل، وأنهما ينطلقان من أرضية عربية، على الرغم من إفادتهما من منجزات غربية مهمّة. وقد استعمل مفهوم النموذج الإرشادي للوقوف على التحولات التي يُحدثها كلّ منهما في التصورات التقليدية لعلم البلاغة في العقود الأخيرة.

يقترح مؤلِّف هذا الكتاب أن مشروعي البلاغة العامة وبلاغة الجمهور أحدثا تحولين جذريين في النموذج الإرشادي لعلم البلاغة العربية المعاصرة. ورصد بدقة وعمق التغييرات التي أحدثاها في إدراك الباحثين المعاصرين لماهية علم البلاغة، ومسائله، وغاياته، وعلاقاته المعرفية، ومستقبله القريب. والكتاب من هذه الزاوية يقدم معالجة وصفية ونقدية متميزة لهذين المشروعين المعرفيين؛ لكنه لا يقتصر على ذلك، إذ يُقدم كذلك منظورًا مقارنًا لا يقل أهمية.

قارن المؤلَّف بين مشروعي البلاغة العامة وبلاغة الجمهور من زاوية

علاقة كلّ منهما مع التراث، والبلاغة الغربية، وخصوصية المفاهيم المحورية التي تشكّل كلًّا منهما. وُضِعتْ هذه المقارنات في إطار شامل هدفه مقارنة التصورات الإبستمولوجية للمشروعين؛ لتحديد مفاصل الالتقاء، ونقاط التباين فيما بينهما. وعلى الرغم من أن المؤلف ينطلق من فرضية موجّهة هي أن بلاغة الجمهور تُمثّل "بلاغة خاصة" يمكن أن تعمل في إطار "بلاغة عامة"، فإن هذا التصور للعلاقة بين المشروعين لم يحل دون إدراك الخصوصيات والتمايزات العميقة بين المشروعين. وفي الحقيقة، فإن المقارنة التفصيلية الوافية والدقيقة بين المشروعين ربما أسهمتْ في مراجعة هذه الفرضية، لتتأسس علاقات أخرى تصف الصلة بين المشروعين بدلاً من علاقة الاحتواء التي يفرضها تصور العام والخاص. فكلما اقتربنا من ختام مقارنة المؤلّف للمشروعين، تراجع الإلحاح على علاقة العموم والخصوص؛ لتحل محلها علاقة الاستقلال والمغايرة.

تقوم مقارنة المشاريع العلميّة الفاعلة في حقل معرفي ما بوظائف متنوعة. من أهم هذه الوظائف نقد التصورات الشائعة للعلاقات بين الإسهامات العلمية، على نحو ما يتحقق في هذا الكتاب. علاوة على ذلك، فإن مقارنة المشاريع العلمية يمكن أن تكون مدخلاً لكتابة تاريخ العلم، على اعتبار أن تاريخ العلوم هو بشكل أو آخر تاريخ المشاريع العلمية الأكثر تأثيرًا فيه. كذلك، تقود هذه المقارنات إلى الفحص الدقيق لخصوصيات المشاريع العلمية، بما يجعل إدراكنا لهذه المشاريع أكثر نفاذًا وعمقًا. وفي الحقيقة، فإن إحدى النتائج الثانوية شديدة الأهمية للمقارنة التي عقدها المؤلّف بين مشروعي الأستاذين العمري وعبد اللطيف تمثلتْ في تقديم فحص شديد العمق لخصوصيات كلّ منهما، ربما يكون غير مسبوق أيضًا. وأخيرًا، فإن

مقارنة المشاريع العلمية يُعدُّ مدخلاً ناجعًا لتقييم الإسهام الفعلي الذي يقدمه كلّ مشروع منها. ويمكن لمتصفح الكتاب الحالي أن يصل إلى خلاصات تقييمية دقيقة بشأن المشروعين المدروسين بفضل الملاحظات الثاقبة التي قدمتها مقارنة الأستاذ المجداوي بينهما.

يزداد تقديرنا للأعمال المقارنة للمشاريع العلمية إذا وضعنا في الحسبان ما تحتاج إليه هذه المقارنة من عُدّة معرفية، وجهود بحثية. إذ يحتاج الباحث إلى إلمام عميق وشامل بكل ما كتبه أصحاب هذه المشاريع، والإحاطة بمصادرها، وتتبع تجلياتها، وآثارها. وهو ما يتطلب جهدًا كبيرًا من المقارِن. كما تحتاج هذه المقارنة إلى إطار نظري ناجع يمثل أرضية معرفية لهذه المقارنة. ولا بد أن قارئ هذا الكتاب، سيقدِّر، على نحو مضاعف، الجهد الذي بذله مؤلّفه في إنجاز مقارنته؛ وذلك لسببين على الأقل: الأول هو صعوبة الإحاطة بالمشروعين المدروسين؛ لكثرة وتنوع الكتابات التي تنتمي إليهما؛ بفضل غزارة الإنتاج و/ أو التراكم المعرفي عبر عقود من الزمن. أما الثاني فهو أن إحاطة الباحث بأعمال المشروعين البلاغيين تتسم بالدقة والعمق، وتخلو من مشكلات معتادة؛ مثل تشوه الفهم، وإيثار النقل والاقتباس، وغياب الرؤية النقدية، والتحيز المسبق.

ليست السمات السابقة هي وحدها مآثر الكتاب الذي بين يديك قارئي العزيز. فهيكل الكتاب من حيث تراتب موضوعاته، وفصوله، يتسم بالانسجام، والتماسك، والفاعلية. فهو يصدر عن خطة واضحة، وتصور دقيق لما هو جوهري في المشروعين البلاغيين المدروسين. كما أن الكتاب يعكس بعض أهم السمات التي يجب أن يتمتع بها الباحثون؛ أعني

الموضوعية، والنزاهة، وحسن تقدير الأمور. علاوة على ذلك، يكشف الكتاب عن تمكُّن المؤلّف من أدواته البحثيّة على نحو مثير للإعجاب؛ فهو يسيطر على موضوع بحثه، ويتحرك وفق خطة محكمة، ويسيطر على اللغة باحتراف. ولا يسع قارئ الكتاب إلا أن يُعجب بأسلوب الكاتب، وبخاصة سمات الوضوح، والدقة، والإتقان التي تظهر في كلّ فقرة من فقرات كتابه.

مقدمة

تشترك الأعمال التي تنتمي إلى "البلاغة الجديدة" في هدف كبير يتجلى في تجديد الدرس البلاغي العربي القديم أو ما يُعرف بـ"البلاغة التقليدية" التي يجسدها أبو يعقوب السكاكي (ت626هـ) خاصة في القسم الثالث من كتابه "مفتاح العلوم"، هذا القسم اتكأ عليه الخطيب القزويني (ت739هـ) تلخيصا وتوضيحا،[1] ومن ثم تشكلت نظرة قزوينية للبلاغة العربية ستعمل الدراسات البلاغية الجديدة جاهدة على تجاوزها. وهي نظرة مدرسية للبلاغة العربية، استمرت بعد الخطيب القزويني مع شراح تلخيص مفتاح العلوم حتى زمننا الحاضر؛[2] إذ حَصرت البلاغةَ العربية في أقسام ثلاثة، سَمَّتها البيانَ، والمعانيَ، والبديعَ؛ مما جعلها تتبادر إلى ذهن كل من مرَّ بباله ذكر كلمة بلاغة. وعلى الرغم من تاريخ هذه "البلاغة المختزلة" فقد تخللها في عصر القزويني مشروعٌ بلاغي مغاير مع حازم القرطاجني (ت684هـ) في كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" الذي احتفلت به البلاغة الجديدة وهي تبحث في التراث البلاغي العربي عما يخدم رؤيتها التجديدية، ولكن منهاج حازم لم يحظ بقارئ في عصره مثلما حظي مفتاح السكاكي بمجموعة من القراء، غير أن باحثين بلاغيين جددا عكفوا اليوم على التراث البلاغي

(1) انظر: القزويني الخطيب: التلخيص في علوم البلاغة والإيضاح في علوم البلاغة.
(2) لعل أشهر الكتب البلاغية ذات الطابع الاختزالي المدرسي المتداولة اليوم، كتاب "البلاغة الواضحة" لعلي الجارم ومصطفى أمين.

مُطّلعين في الوقت نفسه على التقدم المعرفي الحاصل عند الغرب، سواء في علوم اللسان أو الإنسان، غير متقوقعين على "الهوية العربية" يحاولون البحث في إطار العنصر "العربي الأصيل"، بل عملوا على محاورة التراث ونقده، بإبعاد ما جمّد حركية البحث البلاغي والأخذ بما من شأنه أن يحقق سيرورته في تفاعل حضاري، غير منبهرين بما عند الآخر جملة وتفصيلا، بل بعد تمحيصه ومحاورته خدمة للبلاغة التي انفصلت عن الحياة وعن محاورتها نصوص عصرها. وفي هذا المسار التجديدي شمخ اسم الأستاذ محمد العمري بمشروعه الرائد البلاغة العامة عبر تاريخ من البحث المضني نَيَّفَ على أربعة عقود ولم ينتهِ من تهذيبه، ففي كل لحظة يضيف ما من شأنه أن يُحكم بناء هذا الصرح البلاغي الجديد، لاسيما أن مشروع البلاغة العامة يستلزم دخول بلاغات خاصة في إمبراطوريته، وهي نزعة "هيمنة" تروم تحقيق إطار بلاغي عام يتسع لأي بلاغة كيفما كانت أسئلتها البحثية وروافدها المعرفية ما دامت تنتمي إلى الحقل البلاغي.

وفي إطار هذا المسار التجديدي للحقل البلاغي العربي نفسه، برز الباحث عماد عبد اللطيف بمشروع ضخم متكون من خمسة مسارات كبرى منها: اقتراحه توجها سماه بلاغة الجمهور، الذي سنسمه بسمة مشروع؛ لأنه حدد له مادته وموضوعه ووظيفته بعد قراءة التراث البلاغي العربي، بالإضافة إلى تحديد مجال بحثه وأسئلته الخاصة ثم محاولة تحديد تصوره الإبستمولوجي وإطاره الفلسفي.

سنعمل على البحث في توجهه البلاغي الجديد (بلاغة الجمهور) منذ ظهوره تحت عنوان "بلاغة المخاطب" سنة 2005 في مقاله المؤسِّس لهذا

التوجه المعرفي الجديد ممتدين مع الزمن إلى سنة 2017 حين صدور عمل جماعي يحمل عنوان: "بلاغة الجمهور: مفاهيم وتطبيقات".

اطلعنا في هذا الكتاب الجماعي لبلاغة الجمهور على دراسة للأستاذ ادريس جبري بعنوان: "في علاقة البلاغة العامة بالبلاغات الخاصة، بلاغة الجمهور عند عماد عبد اللطيف نموذجا"، فشدنا العنوان ثم تتبعنا بناء الدراسة ومحتواها باحثين عما يسميه الدكتور محمد العمري العنصر المنسق الذي يجعل البلاغات الخاصة تنتمي إلى البلاغة العامة، فكلمة العامة تقتضي بداهة الخاصة ومثالها هنا هو "بلاغة الجمهور".

قسّم الباحث دراسته إلى قسمين، خصّص القسم الأول للبلاغة العامة متحدثا فيه عن نشأتها وعن أهم محطاتها مع محمد العمري، ثم انتقل إلى الحديث عن بلاغة الجمهور وأهم منجزاتها، وتخلل ذلك بعض إشارات إلى توافق البلاغتين في عدة مناطق، أهمها منطقة المخاطب الذي يعبر عنه في البلاغة العامة بالمستمَع ترجمة لـ Auditoire ويعبر عنه بالجمهور في بلاغة الجمهور؛ لقد كان هذا التجاور الذي جمع فيه الباحث بين هذين المصطلحين مبعثا على التساؤل والبحث في مفهوميهما، ليتطور الأمر إلى البحث في الأسس الإبستمولوجية للمشروعين البلاغيين على مستوى أكبر؛ فاتخذنا افتراضات تلك الدراسة منطلقا لتعميق البحث في الإشكالية الكبرى لهذا البحث، وهي:

كيف تتحقق العلاقة بين البلاغة العامة وبلاغة الجمهور؟

وتفرع عن هذه الإشكالية مجموعة من الأسئلة نحصرها في ما يأتي:

هل يمكن الحديث عن البلاغتين في إطار واحد؟

أيمكن أن نعدّ بلاغة الجمهور بلاغة خاصة؟

ما التصور الإبستمولوجي لهذين المشروعين البلاغيين؟

ما خلفياتهما الفلسفية؟

ما الروافد المعرفية التي يمتحان منها؟

ما مدى حضور السؤال المصطلحي في المشروعين كليهما؟

ما منهجية تحليلهما الخطابات المتنوعة؟

وتبعا لذلك، تناولنا في هذا البحث ثلاثة أسس تهم المشروعين معا وزعناها على ثلاثة فصول يبتدئ كل منها بتمهيد وينتهي بخاتمة، ضم الفصل الأول ثلاثة مباحث فيما ضم الفصلان الثاني والثالث مبحثين في كل منهما، وكل مبحث من مباحث الفصول الثلاثة ضم مطلبين اثنين.

تتبعنا في الفصل الأول قراءة الباحثَين[1] التراث البلاغي العربي وكيفية استثمارها في بناء مشروعيهما، كما رصدنا فيه التقنيات التي وظفها الباحثان في تلك القراءة التراثية؛ لنخلص إلى الحديث عن التصورين الإبستمولوجيين للمشروعين وفق تعريفهما مفهوم البلاغة بشكل عام، ثم انتقلنا إلى الفصل الثاني للحديث عن المنظومتين المصطلحيتين للمشروعين بتحديد مدى حضور السؤال المصطلحي عند الباحثَيْنِ لبناء مشروعيهما البلاغيين، ثم تتبّعنا

(1) طلبا للاختصار نستخدم عبارة "البَاحِثَيْن" للدلالة على الأستاذين محمد العمري وعماد عبد اللطيف، ونوظف عبارتي "مَشْرُوعَيَّنِ" و"بلاغتين" للدلالة على (البلاغة العامة وبلاغة الجمهور).

أهم مصطلحات المشروعين بالبحث في مفهوماتها من زاوية إبستمولوجية والابتعاد عن الجوانب المعجمية للمصطلحات، ثم خصصنا الفصل الأخير لبحث العلاقة بين البلاغتين استعانة بالعنصر المنسق للبلاغات الذي يحدده الأستاذ العمري في الاحتمال والتأثير ورصد العلاقة على نحو دقيق من خلال بحث مفهومي المُسْتَمَع وَالجُمْهُورِ وما يطرحه ذلك من إشكالات سواء تنظيرا أو تطبيقا، وختمنا جولتنا البحثية بالحديث عن المشروعين بوصفهما مقاربتين لتحليل الخطابات.

وفي محاولة الإجابة عن الإشكالية الكبرى والإشكاليات الفرعية استعنا بمجموعة من المراجع على رأسها كتاب "بنية الثورات العلمية" لتوماس كون[1] ترجمة حيدر حاج إسماعيل، كما اعتمدنا قراءة الأستاذ بناصر البعزاتي التي تناولت فلسفة العلم عند الفيلسوف توماس كون؛ لأننا وظفنا مفهومَ الإبدال المعرفي Le paradigme –الذي يُنسب إلى "كُونْ"– في قراءة هذين المشروعين البلاغيين، كما اعتمدنا بشكل أساسي على أعمال صاحبي المشروعين، وخاصة أعمالهما المؤسسة لمشروعيهما سواءٌ أكُتباً كانت أم مقالات. وقد استدعى البحث في مفهوم المُسْتَمَع Auditoire الذي نشأ مع بيرلمان Perelman الرجوعَ إلى كتاباته الأساسية المتعلقة بهذا المفهوم خاصة في غياب ترجمة كاملة لها.[2]

(1) توماس كون Kuhn Thomas (1922–1996): فيلسوف علم أمريكي معاصر. أدخل إضافات مهمة في فلسفة العلم. من أشهر مؤلفاته "بنية الثورات العلمية"، طبع لأول مرة عام 1962.

(2) نقصد بشكل خاص كتابيه: "Traité de l'argumentation, La nouvelle rhétorique" و"L'empire Rhétorique, rhétorique et argumentation"

اتسم البحث في العلاقة بين البلاغتين بمتعة استكشاف قضايا فكرية جديرة بالاهتمام والمتابعة واتسم بالحذر كذلك؛ فباستثناء دراسة الباحث جبري المشار إليها سابقا، ليست هناك دراسة تتناول المشروعين معا جنبا إلى جنب بالبحث في العلاقة بينهما، انطلاقا من دعوى الأستاذ العمري بأن البلاغة العامة تضم البلاغات الخاصة جميعها من خلال عنصري التأثير والاحتمال. وللإشارة فالبحث في هذا الموضوع يتجاوز البحث في العلاقة بين المشروعين إلى لفت الانتباه إلى المشاريع الجديدة وضرورة إجراء حوارات بينها، خاصة أنها مشاريع عربية نشأت في بيئة عربية بالاستفادة من المنجز الحضاري.

مدخل

استدعى البحث في علاقة البلاغة العامة ببلاغة الجمهور تَعَرُّفَ تصوري المشروعين على المستوى الإبستمولوجي، أي الأسس التي بُني عليها هذان المشروعان البلاغيان، كما استدعى بحثَ مصطلحات المشروعين في مستواها المفهومي والابتعاد ما أمكن عن جوانبها المعجمية الاشتقاقية إلا في مواضع معدودات؛ فطبيعة هذا البحث تغتني بدراسة المصطلحات من الزاوية الإبستمولوجية أكثر من الزاوية المعجمية.

وبتعميق الرؤية في مسار البحث على امتداد الفصول الثلاثة كلها، يمكن أن نحصر هذا المسار في بعدين اثنين هما:

1 – البُعد التاريخي

يتجلى هذا البعد التاريخي في الاهتمام بالمحطات الكبرى التي شكلت منعطفات حاسمة في تاريخ البحث البلاغي، ووضعها في إطار سياقاتها التاريخية العامة –من خلال منظوري صاحبي المشروعين– فالمعرفة البلاغية تبقى معرفة تاريخية لا تتعالى على الزمن لتصبح في المطلق صالحة لكل زمان ومكان، بل هي خاضعة لشروط أزمنتها في تفاعل مع أسئلة كل عصر على حدة، ويبقى الاهتمام بشكل عام بالبعد التواصلي التداولي للغة في مسيرة التحليل اللغوي الدافع وراء ظهور هذه المحاولات البلاغية التجديدية حين لاحظت تغيرا على مستوى الخطابات التواصلية ووسائطها.

استخدمنا تعبيرا عن رؤية المشروعين التراث البلاغي العربي وحضوره في بنائهما مجابهةً للخطابات المتنوعة وتجاوز العوائق البلاغية في تاريخ ذلك التراث مفهومَ الإبدال المعرفي، وهو ما أتاح لنا تعرف التصور الإبستمولوجي بشكل جلي، كما حضر هذا المفهوم بكونه تقنية وصفية وتحليلية ونقدية

استخدمها الباحثان في تلك القراءة التراثية للبلاغة العربية؛ ولا بد من التنبه لذلك تمييزا بين الأمرين.

تتغير الإبدالات البلاغية عموما، فتتغير معها نظرة الباحثين الملتزمين بالإبدال الجديد إلى الوقائع البلاغية حتى المألوفة قديما؛ ومن ثم تتشكل رؤيا بلاغية جديدة لما هو مألوف بمنظار الإبدال الجديد، ولهذا فالتراث البلاغي العربي هو واحد لا يتغير، ولكن طبيعة رجوع البلاغيين إليه تختلف بينهم بحسب انتمائهم للإبدال الذي يتخذونه سبيلا إليه. ولحظات تأمل عميقة تجعلنا نقف عند طبيعة هذه العودة مع الباحثَيْن، فمحمد العمري يرجع ليرصد إرهاصات البلاغة العامة ويحاول دائما إثبات قواعد إبداله المعرفي البلاغي في مواطن من ذلك التراث، فهو، مثلا، لا يفتأ يذكر قضية التداخل بين التخييل والتداول حين حديثه عن حازم القرطاجني، كما نجده يقتنص الإشارات والعبارات الدالة تلميحا أو تصريحا على عنصري تنسيق البلاغات الخاصة وهما الاحتمال والتأثير.

كما يحضر الرجوع إلى التراث البلاغي العربي والغربي عند عماد عبد اللطيف للتدليل على أن البلاغة في تاريخها المديد منحت المتكلم السيطرة والهيمنة على حساب المخاطب.

2 – البعد المفهومي

يحمل كل مشروع بلاغي من المشروعين تصورا حول المعرفة البلاغية، تُدرك من خلال ما يقدمه كل منهما لحل "المشاكل" البلاغية التي لم يستطع ذلك الإبدال السائد (السكاكي)، وهو ما يدفع إلى تعرف الأسس التي تقوم عليها المعرفة البلاغية مع هذين المشروعين البلاغيين من خلال رصد

القواعد التي يمتلكانها في معالجة الوقائع البلاغية، وغالبا ما تتحول تلك القواعد إلى مفاهيمَ تُبدع في سبيل ذلك، ثم تنسيقها وفق نسق بنائي يشكل الأسس العامة للمشروعين.

إن تشكيل التصور الإبستمولوجي للمشروع ذو أهمية كبرى في عملية التأسيس، و"إبداع المفاهيم" التي تعالج الخطابات المتنوعة ضرورة لتحقيق ذلك التصور، فالمفاهيم تمر من مراحل متعددة بدءا من إبداعها أثناء مجابهة وقائع بلاغية تستدعي حلها، ثم مرحلة تجميعها وتنسيقها في منظومة مصطلحية تتعالق فيها، حيث لا يُرى انعزال مفهوم عن باقي المفاهيم الأخرى داخل النسق المؤسَّس له. وتبقى سمة إبداع المفاهيم ملازمة للبلاغيين الذين يعتنقون إبدالا جديدا؛ لأنهم بالإضافة إلى جدة البحث في الإبدال الجديد هم أكثر تحررا من الإبدال السائد وأكثر إعمالا للاجتهاد في معالجة الوقائع البلاغية.

وإننا إذ نتناول المشروعين معا جنبا إلى جنب لا نقارن بينهما، إذ لا تصلح المقارنة بين إبدالين لكل منهما تصوره للمعرفة البلاغية، وإنما همنا كله في معالجة الأسس الإبستمولوجية وتبيان دعوى انتساب بلاغة الجمهور إلى البلاغة العامة انطلاقا من دعوى محمد العمري.

وللبحث في الإشكاليات التي يطرحها البحث عموما، نفترض أن التحليل الإبستمولوجي هو الأنسب لمقاربتها، خاصة أن موضوع بحثنا يستوجب ذلك، فالباحثان يؤسسان مشروعيهما انطلاقا من هذا الجانب ويعالجان المعرفة من هذه الزاوية بشكل خاص، وسيتضح ذلك في ثنايا البحث، ولذلك فهو وسيلتنا في معالجة قضايا البحث وليس غاية في ذاته،

ومن ثم لم يكن لنا وقفة للتعريف بالتحليل الإبستمولوجي، وسنستغل هذه المساحة الصغيرة لإعطاء إشارة عن كيفية اشتغاله، فما يهمنا هو اتخاذه سبيلا في البحث كما أشرنا إلى ذلك.

يرتبط التحليل الإبستمولوجي بالدراسة النقدية للأسس التي تقوم عليها المعرفة العلمية ومفاهيمها ونتائجها، هذه المعرفة العلمية تصدق على البلاغة بوصفها علما تتوفر فيها شروطه وتتحق على نحو ما سيأتي، ومن ثم البحث في الأسس البلاغية والمعرفية عموما والبحث في تقنياتها بشكل متعمق فيما يقوم عليه المشروعان البلاغيان. وعموما "يتناول الخطاب الإبستمولوجي التفكير العلمي في مرحلة تاريخية معينة من مراحل تطوره، ويريد هذا الخطاب أن يظل على وعي بتاريخيته ونسبيته، وألا يقع في خطأ التعميم الواهم للنتائج المحصلة من هذا التحليل التاريخي والنسبي. إن الخطاب الإبستمولوجي إذ يتعلق بالقيم المعرفية لفترة معينة من نمو المعارف الإنسانية لا يريد أن يقع في خطأ إضفاء صبغة الإطلاق على هذه القيم المعرفية"،[1] إن شرط التحليل الإبستمولوجي هو الوعي بالذات والوعي بالموضوع داخل وعي أكبر بحركية الفكر وتاريخيته وقواعده الكلية المؤسسة له.

إن التحليل الإبستمولوجي لا يحضر في مقاربتنا بمنزعه الفلسفي الخالص، بل في إطار مقاربة بلاغية حجاجية تستدعي التخييل في كل قضية تحتاج ذلك، خاصة أن هذه الحقول المعرفية ينفتح بعضها على بعض في إطار تكاملي.

(1) وقيدي (محمد): ما هي الإبستمولوجيا؟، ص:86.